الساعاتي (١)

روايز لفرا العرد

عندما دقت ساعة الحائط ثلاثاً دخل رجل مجهول دكان الساعاتي الضيقة المستطيلة الواقعة في شارع ثانوي نسجت عليه السكينة نسيج الهدوء. وقال للساعاتي بلهجة اجنبية : ضع لي زجاجة لهذه الساعة ووضع امامه ساعته العتيقة المعدنية

وكان الساعاتي جالسا وراء منضدته مرتديا فوق ملابسه جلبابا أبيض يصلح دواليب ساعة وهو رجل نحيف وشعره أشقر خفيف

فأخذ الساعة وبعد أن تأملها قال لصاحبها ان اصلاحها لا يكلفك الشيء الكثير

— على كل حال تكسب شيئا وان كان قليلا

وكان هذا الزائر الغريب يظهر كما لو انه شيخ مسن بلغ من العمر أرذله ذو وجه برزت أساريره تلوح عليه آثار التعب المضنك وذو شاربين قصيرين وكان مرتديا سروالا قديما أكل الدهر عليه وشرب وعلى رأسه قبعة أحرقتها حرارة الشمس وعبثت بها الايام . فتفرس دقيقة في الساعاتي الذي كان يبحث عن زجاجة للساعة ثم فاجأه بقوله :

— أصحيح ان اسمك فرديناند بوريل ؟

(١) نسبة على غير القياس

— فرفع الساعاتي رأسه وقال . تستطيع قراءة ذلك على اللوحة المعلقة على باب الدكان

— وهل ولدت في شارع كينكانبوا وعمرك الآن ٣٢ سنة وابوك ...

— هل أنت بوليس سري ؟

— كلا . أجب على سؤالي وذلك لايعود عليك بضرر ما .

— نعم أنا فرديناند بوريل . وولدت في شارع كينكانبوا وعمري ٣٢ سنة ولكن لماذا يهمك ذلك ؟

— وهل أبوك كان يتاجر بالحديد ؟ واسمه برتار بوريل ؟

— ليس لي أب . وأنا لا أعرفه قطّ ... وكان لي أم ربتني ولا أقول انها أنفقت عليّ بسخاء ولكنها هذبتني . تركها زوجها وحدها عند ما بلغتُ الرابعة من عمري . ومن الغريب انه ما كان لديه ما يدعوه الى تأنيبها او مؤاخذتها بشيء مطلقا (وضرب بظفره أسنانه الصفراء) . باع الأب دكان الحديد ودون ان يحذر احداً اختفى عن الانظار تاركا زوجته وابنه ولم نعلم عنه خبراً الى اليوم ولم نقف له على أثر فاذا كنت تريد بأبي هذا الرجل فاني أقول لك انه لم يكن لي أب .

— فقال الغريب بصوت منبهّج خافت . أنا ابوك

فاضطرب الساعاتي لهذه المفاجأة وتراجع الى الوراء ونظر الى الواقف امامه نظرة الدهش والاستغراب

فخفض الرجل نظره وكرر كلامه قائلا .

— أنا أبوك . وهذه أوراقي الرسمية وصورتي الشمسية . أجل اني تغيرت كثيراً ولكن مع كل ذلك بمعرفتي تمكنت . أنظر أنظر فقد تصورت مع والدتك

— أني ماتت من منذ ثماني سنوات

فاصفر وجه الغريب ثم ساد السكوت .

— كيف استطعت وجودي ؟

حضرت الى المدينة وجعلت أطوف أسواقها فوقع نظري على اسمك المكتوب فوق باب الدكان وسكت طويلا وقال .

— لا أنكر اني تصرفت تصرفا رديئا حينئذ — والذنب ذنبي. والحق يقال ان الذنب يقع على تصرفات الدهر وادبار الزمان . فقد تأخرت أشغالي كثيراً وتناقص ربحي ويا ليت الامر وقف عند هذا الحد بل ان أملاكي كانت تتكدس يشتري وتختلق مئات الاسباب لتنغيص حياتي حتى كدت أفقد عقلي وتعطشت نفسي للحرية والنجاة من تلك العيشة المرة الشاقة . وقد حدث اني قابلت بعض الناس الذين كانوا يتأهبون للسفر الى أميركا وكان يلزمهم رجل نشيط عامل يملك بعض الدراهم فحملني الطمع لاحراز الثروة على بيع الدكان وسافرت دون أن أخبر زوجتي لأني كنت واثقا بأنها لا تدعني أسافر وقد قررت العودة اليها عند ما أجمع ثروة طائلة ولكن آمالي وأماني لم تتحقق وأضعت كل ما أملك . واضطررت ان أشتغل حمالا أحمل أغراض الناس بالاجرة . سافرت الى استراليا واشتغلت بتربية الحيوانات الداجنة فلم أفلح بل فشلت فشلا تاما ومرت السنون تلو السنين والنحس حليفي والشقاء أليفي

— ولماذا رجعت الآن ؟

— اني شيخ هرم كما ترى وقد أضعت كل شيء وتحملت المشاق حتى أنهكت جسمي وأضعفت قواي ولم يعد في استطاعتي العمل وما أحببت أن أموت وانا وحيد طريد شريد وذكرت في حالتي التعسة زوجتي وابني وقلت اعود اليها علها يقبلاني كالابن الضال ويغفران لي زلتي وكان صوته قد خفت ونشف لسانه وأما الساعاتي فقابل كلامه هذه ببرود وجمود ثم قال له .

— أنا لا أعرفك مطلقا . ويحتمل ان تكون برنار بوريل ولكن ذلك لا يهمني فأنت لست أنت . حقا ان لمركك لطيف جداً : رجل ذو زوجة وطفل تضايق منهما ولم يستطع العيش بقربهما فتركهما وسافر دون ان يفكر بأنهما ربما يموتان جوعا وبعد أن غاب زمنا طويلا يعود الآن كأنه لم يقترف أمراً إداً . اني أشكرك جداً .

ثم ضحك ضحكة تقطر سما وجعل يتخطر في الدكان ذهاباً وإياباً ثم وقف أمام الغريب وقفة الغضب والسخط وقال له :

— أنظر الي . أنت تقول اني ابنك ؟ فماذا فعلت لي ؟ وبأي شيء أنا مدين لك ؟ أجل اني كنت أرى أمي تكاد تموت من التعب في سبيل تحصيل ما يقوم بأودي . وأنا كابدت الاتعاب والمشاق لتحصيل بعض دريهمات ادفعها أجرة مدرسة لأني أحببت أن أتعلم ولكني لم استطع الى ذلك سبيلا وكل ذلك بسببك أنت . أنت تركتنا وأنا كنت يتيما في حياة والدي . والآن أنت ترجع لتراتح من عنا الاعمال ! حقا انك رجل شريف قمت بواجباتك خير قيام ان هذا كثير جداً ! اني لا أعرفك . انصرف من هنا وإلا ...

وكان صوته يتلجلج ووجهه الاصفر احمرّ من شدة الغضب

— فقال الرجل والحزن آخذ منه كل مأخذ : الى أين أذهب أنا . انت لا تستطيع طردي . اني لا أكلفك الشيء الكثير ولا أطلب غير لقمة وسقف ارتاح تحته . اني أستطيع مساعدتك . اكنس الدكان وأرتبها وأشتري لك حاجات المنزل . اتركني حتى أموت ولا تدع شيبتي تنزل بحزن الى الهاوية . وهل تستطيع ان تطرحني في الشارع ؟ أجل اني اقترفت اثما ... ولكن على كل حال اني والدك

فهز الساعاتي كتفيه وقطب حاجبيه وانتفخت أوداجه وكشر عن أنيابه وقال :

— لا أعرف لي أبا . نعم كانت لي أم عانتني وربتني ثم علتها وحافظت على راحتها وبذلك قمت بواجبي نحوها كما قامت بواجبها نحوي وأما أنت فاني لا أعرفك . ولو أردت مساعدتك فاني لا أستطيع ذلك لأني احصل قوتي بكل مشقة وفوق هذا فاني لا أستطيع الزواج لاني فقير معدم . انصرف من هنا

— اسمح لي أن أبقى عندك أيامًا معدودة ربما أبحث عن عمل أستطيع بواسطته تحصيل ما أسد به رمقي .

فلم يجبه الساعاتي ببنت شفة

فدنا الشيخ من ابنه الذي تراجع الى الوراء والغضب آخذ منه كل مأخذ فضحك اذ ذاك الاب ضحكة المكر واللؤم وقال له :

أيها الاحمق الأخرق ! ان كل ما قلته صحيح عدا الفقر والحاجة. اني جمعت ثروة طائلة في استراليا . افهم ذلك واعلم ان عندي ملايين يبلغ ايرادها السنوي مبالغ طائلة . اذا شئت وحضرت لأكون بجانب عائلتي . قدمت من أقصى الأرض لأبحث عنك واعطيك كل ما أملك . وارتاح بجانبك . ولكنك لن تنال مني قلامة ظفر

فضحك الساعاتي وهو غير مصدق لما يسمع

— أيها الاحمق ان ضميري قبل الآن كان يؤنبني وأما الآن فاني مطمئن النفس والضمير . عم مساء . وحافظ على الساعة . وخرج لا يلوي على شيء .

فوقف الساعاتي والساعة بيده ولكنه اقشعر جسمه واصفر وجهه وقال : واذا كان كلامه صحيحا ؟

ثم طرح الساعة على الارض وخرج مسرعا من الدكان وجعل يبحث بين الجماهير عن والده فلم يهتد اليه لأنه اختفى من الانظار .

(عن مجلة روسيا المصورة)